شعر ابن الخياط

لم يقع شعراء عصر من العصور في حيرةٍ وقوع شعراء عصر ابن الخياط الدمشقي في مثل هذه الحيرة ، فقد جاء في زمن استوى الشعر فيه واختمرَ ، جاء في منتصف القرن الخامس ومات في أوائل القرن السادس ، بعد ان ظهرت في الأدب لطائف كشاجم وقلائد المتنبي ومدائح البحتري ومراثي أبي تمام وخصائص غيرهم من شعراء كبار لم يتركوا في المجال الذي جالوا فيه قولاً لقائل ، حتى ان شعراء العصر الرابع وصفوا أموراً في حياة الناس ومجتمعاتهم لا تخطر ببال أحدٍ ، دع تغنيهم بالطبيعة ، حيوانها ونباتها ، وتصويرهم لملاعب القوم وملاهيهم .

فلم يغادر شعراء ذلك العصر من متردمٍ ، فلهذا وقع الشعراء من بعد عصر المعري ومهيار والشريف الرضي و كشاجم وأبي فراس والمتنبيّ وغيرهم في حيرة من أمرهم ، أينسجون على أذيال شعراء بلغوا من جودة القول المبالغ ، أم يخترعون مذاهب في الشعر لم يفطن اليها من تقدمهم .

وواقع الأمر أنهم لم يخترعوا شيئًا وانما حاولوا اللحاق بالذين قبلهم حتى يكونوا واياهم سلسلة متصلة الحلقات ، فلننظر في الفنون التي خاض فيها شاعرنا الدمشقي ابن الخياط ، لقد مدح في شعره ورثى وتغنى بالطبيعة ووصف فكانت فنون شعره من حيث موضوعاتها مماثلة لفنون الشعراء من قبله .

مدح أُمراء وأشرافًا وقضاةً ، ولا يقعن في خلد أحدٍ ان المدح أمر يسير ، فان المادح يتصور بطلاً من الابطال أو كريمًا من الكرماء ، ثم يجمع له الصفات البارزة التي تجعله قدوةً للناس ، ثم ينتخب لهذه الصفات بياناً يناسبها ، فاذا كانت الصفات التي خلقها للممدوح صفاتٍ عامة تُتخلق لكل ممدوح ، واذا كان البيان الذي يصوّر هذه الصفات غير رفيع القدر كان المدح سخيفًا ، وما خلد المتنبيّ في بعض أماديحه الاّ لأنه هيأ لسيف الدولة صفات لا تسهل تهيئتها لغيره من الملوك ، وانتخب لهذه الصفات بياناً جلّ قدره ، فلا يستطيع كل شاعر ان يقول :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

ولا يستطيع كل ملك او كل أمير ان يقف مثل وقفة سيف الدولة .

فهل كان مدح ابن الخياط من هذا النمط ، فمن قوله في مدح الأمير مجد الدين عضب الدولة في قصيدته المشهورة : خذا من صبا نجد ...

اذا ما هززت الدهر باسمك مادحاً تثني تثني ناضر العود رطبه

لا شك في ان هذا البيان سامي الشأن ، ولكن اذا تتبعنا قول الشعراء من قبل ابن الخياط في هذا الباب ، مثل قول المتنبيء في سيف الدولة :

اذا نحن سميناك خلنا سيوفنا من التيه في أغمادها تتبسم

علمنا ان ابن الخياط لم يخترع في أماديحه شيئاً فليس في هذه القصيدة صور حديثة ، الا أن صورها بارعة ، أثر فيها ميراث العصور من قبلها فظهرت عليها آثار هذا الميراث الخصب .

فلننتقل من هذا الفن ، فن المدح ، الى فن الرثاء ، رثى ابن الأمير عضب الدولة وقد قتل في البقاع ، فمن قوله وهو يخاطب المرثي :

عفت الدنية والمنية دونها فشرعت في حد الرماح الشرّع
ولو انك اخترت الامان وجدته انى وخدُّ الليث ليس بأضرع
من كان مثلك لم يمت الا لقىً بين الصوارم والقنا المتقطع !

فقد يجد الناظر في هذا الشعر آثار أبي تمام في مراثيه ، فحالة ابن الخياط في رثائه مثل حالته فى مدحه ، فهو يرد مورداً لا ينضب معينه فجرته له العصور الفارطة .

وما يقال في أماديحه ومراثيه يقال في غزله ، ومن أبياته المشهورة في هذا المعنى قوله :

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه فقد كاد رياها يطير بليه
واياكما ذاك النسيم فانه اذا هب كان الوجد ايسر خطبه
خليلي لو أحببتما لعلمتما محل الهوى من مغرم القلب صبه
تذكروا الذكرى تشوق وذو الهوى يتوق ومن يعلق به الحب يصبه
غرام على يأس الهوى ورجائه وشوق على بعد المزار وقربه

فغاية القول ان ابن الخياط بارع في التقليد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكما ورث طائفةً من خصائص أكابر الشعراء في الأماديح والمراثي والغزل فكذلك ورث طائفة من خصائص العصر الرابع والعصور التي قبله في التغني بالطبيعة ودقة الوصف ، فمن قوله في وصف محل فيه بركة وأنابيب وفوّار وشاذروان :

يغني لنا طرباً ماؤها وقامت أنابيبها ترقص
يريك الجواهر تقبيلها وهنّ طوافٍ بها غوّص
ومستضحكٍ ذهبي الشفاه بما جزّعوا منه أو فصصوا
منيف يخر يذوب اللجين على ذهبٍ سبكه المخلص
ترى الطير والوحش من جانبيه يشكو البطين بها الأخمص
دوانٍ روانٍ فلا هذه تراعُ ولا هذه تقنص
ترى آمناً فيه سرب الظباء والذيب ما بينها يرعص !

فلم تنجُ هذه الابيات وأمثالها من روح البحتري في الوصف ، فمن هذا كله يتبين لنا ان ابن الخياط لا يكاد ينفلت من آثار العصور السابقة في شعره ، الاّ انه حسن الذوق في الاقتباس عن تلك العصور ، حتى يخيل الينا انه كان جزءاً متمماً للعصر الرابع والذي قبله ، فيكاد يكون واحداً من شعراء تلك العصور ! .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net